٤٥

مدرسة دار الحكمة للعلوم الإسلامية

مركز مدرس للتنمية والدراسات الإسلامية

محاضرة مكتوبة

الشعائر الحسينية عند فقيه أهل البيت السيد الحكيم

سماحة
السيّد حسين الحكيم
-٢٠٢٤-

"الشعائر الحسينية عند فقيه أهل البيت السيد الحكيم قدس سره".

مقدمة تعريفية:

هذا التقرير هو توثيقٌ لمحاضرةٍ ألقاها الأستاذ في الحوزة العلمية سماحة السيّد حسين الحكيم في مركز «مدرك» للتنمية والدراسات الإسلامية التابع لمؤسسة دار الحكمة في النجف الاشرف بمناسبة ذكرى وفاة فقيه أهل البيت السيّد محمد سعيد الحكيم طاب ثراه. تناولت المحاضرة مكانة الشعائر الحسينية في فكر الفقيه الراحل، مبيّنةً رؤيته الفقهية والفكرية والعملية فيها. وتحدّث سماحته عن الأسس الشرعية التي اعتمدها فقيه أهل البيت في إثبات مشروعية الشعائر وأهمّيتها، وعن نظرته الفكرية التي تعدّها امتداداً تأسيسياً لنهضة الحسين عليه السلام، ووسيلةً لحفظ الدين والولاء، مع الدعوة إلى الأصالة والتحديث المتوازن، ونبذ التشنيع والخلاف. كما عرض نماذج من سيرته العملية في إحياء الشعائر، ومشاركته في المواكب وقراءته للمقتل الحسيني، وثباته على إقامة الشعائر في سجون صدام وحرصه على الزيارة الحسينية مشياً، بما يجسّد عمق إيمانه وصدق ولائه للحسين وأهل بيته عليهم السلام.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

"الشعائر الحسينية عند فقيه أهل البيت السيد الحكيم قدس سره".

حاولت أن أركز فيها على ثلاثة محاور:

المحور الأول هو المحور الفقهي.

والمحور الثاني المحور الفكري.

والمحور الثالث هو المحور الذي يرتبط بسيرته في شأن الشعائر.

مهما كنت قريباً مطلعاً، لكن عندما بدأت أثبت النقاط وجدت أني أمام بحر لا يمكن أن أحيط به خصوصاً في هذا الوقت وفي ظل هذا الظرف، ولهذا سأضطر أن ألخص بشكل مُخل من أجل أن لا أخل بظرفكم ووقتكم والتزاماتكم.

المحور الأول المحور الفقهي: أهم ما يستفاد من مجموع كلماته وأبحاثه في الاستدلال على شرعية الشعائر الحسينية وأهميتها الرفيعة هو ما يلي:

الأول: النصوص الخاصة الدالة على الزيارة والبكاء والحزن وإحياء أمرهم والمودة والولاء لهم، وكل واحد من هذه التي ذكرتها عنوان فيه نصوص، والحمد لله نحن في خدمة محضر أهل العلم وخدمتهم، الحر تكفيه الإشارة.

النصوص العامة التي ترتبط بمجمل الشعائر غير القضية الحسينية الخاصة، النصوص هي الآية الشريفة: آية الشعائر، والرواية المشهورة المروية بطرق متعددة مكررة موجبة للوثوق بصدورها، وهي: عن الحسن بن علي بن أبي حمزة، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ((إن البكاء والجزع مكروه للعبد في كل ما جزع ما خلا البكاء على الحسين بن علي عليهما السلام فإنه فيه مأجور))[1].

وهذه قضية الجزع إذا صارت فرصة في الجانب الفكري سأشير إلى أنه يركز عليها ويجد أن من أهم ما ينبغي أن تكون من ملامح الشعائر الحسينية أن تكون بتعبيره صارخة.

في هذا الشأن الفقهي أيضاً يؤكد على الحفاظ على قدسية الشعائر وعلى نزاهتها وعدم الخروج بها عن الضوابط الشرعية، وينبه إلى بعض مصادر هذا الشأن، يشير إلى ما ورد من النصوص في آداب الزيارة مما يركز فيه على أهمية الالتزام بالضوابط والمحافظة على القدسية. في بالكم رواية أنه إذا الإنسان يذهب إلى قبر أبيه لا يفعل كذا. أي ان القضية لابد أن تحفظ فيها هذه الخصائص المقدسة ويحذر جداً من الانزلاق في هذا الشأن اتجاهات بعيدة عن أهدافها. ويذكر في هذا الشأن الفقهي، ولعله جانب أخلاقي لكن هو يُذكر للالتزام به، ويُذكر القائمين على الشعائر لابد أن يكون في قرارة أنفسهم أن المعصومين صلوات الله عليهم خصوصاً إمام العصر عجل الله تعالى فرجه يشرفون على هذه النشاطات والممارسات، بل يعبر هذا التعبير يقول أو يشاركونهم فيه، فإذا استَحضَر

[1] - وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي - ج ١٤ - الصفحة ٥٠٧

المؤمنون ذلك يكون سـلوكهم وأداؤهم مناسـباً لهذا الشـأن. ثم يترقى ويقول: بل الله عز وجل لا تخفى عليه خافية وهو من ورائهم محيط وبيده أسباب التوفيق والخذلان، فاللازم مراقبته في كل صـغيرة وكبيرة. على أي حال المحور الفقهي اختصرـه جداً يعني تكاد تكون مبادئه واضـحة، أركز على المحور الفكري كي يفضـل لدي وقت أن أتحدث عن أهم شيء أريد أن أقدمه بخدمتكم وهو بعض التفاصيل من سيرته التي يجسد فيها فقهه وفكره.

المحور الثاني: المحور الفكري:

المستفاد من مجموع كلماته أنه يرى أن القضية الحسينية هي قضية محورية في تاريخ الإنسان، وفي تاريخ الرسالات الإلهية. مرحلتها الأولى هي بيان الأنبياء لهذه القضية وحديثهم عنها بل بكائهم وتفاعلهم معها. مرحلتها الثانية هي دور النبي (صلى الله عليه وآله) للتأسيس لهذه القضية والإعداد لها وللكلام عنها وإحيائها قبل حصولها مما ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) في ميلاد الحسين عليه السلام، مما نزل به جبرائيل، وعلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) من الخصائص التي ترتبط بقضية الحسين والى آخره من هذا الشأن. ثم المرحلة الثالثة هي مرحلة أمير المؤمنين والإمام الحسن امتداد بل حتى الإمام الحسين عليه السلام نفسه في حياته هو أيضاً امتداد لجده رسول الله (صلى الله عليه وآله) في التأسيس للمرحلة الأساسية المفصلية وهي مرحلة الفاجعة والتضحية الحسينية التي هي المرحلة الثالثة.

المرحلة الرابعة بتفاصيلها الفاجعة وتعرفون تفاصيل هذه المرحلة وهي مرحلة الإمام زين العابدين والسبايا. المرحلة الخامسة هي مرحلة الشعائر الحسينية، والشعائر هي جزء أساس من تحقيق معطيات حركة الحسين عليه السلام وإنجازاتها. بدونها أصلاً يمكن أن يتعطل الأمر بدرجة كبيرة جداً. إذا هو ينظر إلى الشعائر أنها لها هذه الخصوصية في مجمل القضية الحسينية. والمرحلة الأخيرة هي مرحلة الإمام المنتظر عجل الله تعالى فرجه وسهل مخرجه الذي تكون أيضاً حركته المهدوية هي مرتبطة بالقضية الحسينية، فإذا الشعائر هو ينظر إليها بهذه النظرة.

الشعائر هو يراها رضوان الله عليه أنها تأسيس المعصومين وأنها فعل الجمهور وليست هي قراراً من الفقهاء ولا النخب ولديه كلمات كثيرة في هذا الشأن. فهي مؤسسة. هناك بعض الأحيان هكذا يعبر بلهجته المباشرة عن القضايا العميقة التي يتحدث عنها، يقول: "أنا ماذا أفعل؟ هم أهل البيت يريدونها، لما يطرق حديث عن نمو الأربعين مثلاً والطفرة النوعية التي حصلت يقول: هم عليهم السلام يريدون هذا الأمر." فهي في أصلها

التشريعي في أصلها الخارجي التأسيسي. هي من أهل البيت صلوات الله عليهم. والملحوظ، أنا لا اعلم هذه أنسبها إليه أو لا، قد يكون كثير من الأمور نحن نتعلمها منه لكن ننسى نسبتها: في كثير من نصوص الشعائر هي ابتداء من أهل البيت وليست استجابة لأسئلة من أصحابهم كما هو شأن النصوص الفقهية الاعتيادية. بلغني أنك تقول الشعر؟ تزور الحسين عليه السلام؟ قال له: "أنا ظروفي كذا." قال له: "أما تذكر ما صنع به؟". الفعل هو فعل الجمهور. فإذن القضية هي لم تكن مرتبطة بقرار مرجعي مثلاً قرار فقهي قرار نخبوي كذا، لا هي فوق ذلك. دور النخب والعلماء هم أنهم يساهمون فيها، يساندونها، يردون الشبهات عنها، يبينون ويستنبطون حدودها، يبينونها للناس والى آخره من القضايا الأخرى. يقول: "إن الجمهور تجذرت في أعماقهم بحيث يهتمون بإحيائها بأنفسهم ويندفعون لذلك بطبعهم وكأنها جزء من كيانهم ولا تزيدهم الضغوط في اتجاه منعه أو التخفيف منه إلا إصراراً وتمسكاً."

وإذا أريد أن أشرح هذا الموضوع بإشارة مختصرة، الشعائر هي فعل ولائي كما هو يذكر ذلك ويعتقد أن الداعي الأول للشعائر هو الولاء قبل كل شيء. الفعل الولائي هو شأن مشاعري عاطفي، حب، والحب يذكو بالعذل، العذول له دور إذكاء وقود الحب، ومن ثم: "وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه." هذا اجتهادهم هو جزء من الحكمة الإلهية فلا يزدهم إلا علواً. ولهذا كلما بالغ المبالغون في التحريض على الشعائر فكرياً أو التهريج عليها إعلامياً أو استهدافها مباشرة يعني ولو بالقتل والقمع والاضطهاد والتفجيرات والى آخره الأمر يزداد حيوية وحماساً. على أي حال أنا أضطر حتى أختصر إلى يقف أمام الشعائر ليبين كيف أن لها دور في حفظ الإسلام وحفظ التشيع.

ترى بين كلماته خشوع الشاكر لله على مصابه، تجسيد لما ورد: "الحمد لله على عظيم رزيته." يقول: "إن نهضة الإمام الحسين التي ختمت بفاجعة الطف صارت نقطة تحول مهمة في مذهب التشيع حيث صار لها أعظم الأثر في قوته ورسوخ قدمه وبقائه ووضوح حجته وسماع دعوته وتوسعه بمرور الزمن رغم الضغوط الكثيرة والصراع

العنيف." قال عز من قائل: "ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها" وهو المناسب لحجم التضحية التي أقدم عليها الإمام الحسين عليه السلام، -هذه التضحية العظيمة آثارها عظيمة- وهو المناسب لحجم التضحية التي أقدم عليها الإمام الحسين صابراً محتسباً راضياً بقضاء الله تعالى مستجيباً لأمره واثقاً بتسديده ونصره. وبذلك يتضح وجه قوله صلوات الله عليه: "أما بعد فإن من لحق بي استشهد ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح"".

تتذكرون عندما كان السيد يقرأ هذا الكتاب تتذكرون كيف تكون ملامح وجهه تفاعله وانفعاله مع الموضوع لبيان أهمية القضية؟

ثم يقول عن الحسين عليه السلام: " فجزاه الله تعالى عن الدين وأهله أفضل جزاء المحسنين، وصلى الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه الميامين الذين استشهدوا معه والذين سمعوا الداعي فأجابوه ووثقوا بالقائد فاتبعوه ولم تأخذهم في الله لومة لائم ولا عاقهم عن أداء واجبهم عائق." والحمد لله الذي هدانا، -ثم يستحضر نفسه وما أنعم الله عليه- "والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله".

ويؤكد في جانب الأصالة والتحديث في الشعائر

يتحدث في هذا الموضع: خلاصة رؤيته رحمه الله بكلمتين: هو يرى أهمية ترسيخ الأصالة ولكنه منفتح على التطور والتحديث، فهو يرى الجمع بين التأصيل والتحديث، وهل يكون التنامي والتطور والتقدم والانتشار إلا بهذا؟ طبيعي والنتيجة هكذا تتقرر، هو هذه رؤيته ويؤصل لها فكرياً.

يقول: "قد يظن الظان أن تطور الأوضاع في العالم المعاصر يلزم بتطوير وسائل الدعوة للمبدأ وكيفية إحياء هذه المناسبات وتبديلها بما يتلائم مع واقع العصر- وينسجم معه، لكننا في الوقت الذي نحبذ فيه إيجاد وسائل تناسب التطور المذكور - هذا التحديث - نرى أن ذلك يجب أن يكون مصاحباً لهذه الشعائر بواقعها المعهود المألوف لا بدلاً عنها[٢]." فهو يرى التحديث مضافاً إلى المحافظة على التأصيل ويستعرض ذلك. يعني بالإمكان أنه إن شاء الله بعد هذا ربما هذه الوريقات أخليها تحت اختياركم.

أيضاً يتحدث عن التشنيع الذي تتعرض له الشعائر يقول: "العالم مليء بالممارسات والنشاطات التي تمتاز بها بعض الفئات والمجتمعات وهي غريبة عن الآخرين من دون أن يمنعها ذلك من القيام بها والاستمرار عليها كما لا تكون سبباً للتهريج والتشنيع على من يقوم بها، فلماذا التهريج والتشنيع هنا؟" لماذا؟ ثم يبدأ يشرح لماذا ويتساءل بمرارة وبتعجب، ثم يشرح لماذا. يقول: "الظاهر أن من أهم أسباب التهريج هو شعور أعداء التشيع بالمكاسب العظيمة التي يحصل عليها التشيع بسبب شيء، ومن هنا لا موجبة للشعور بالضعف عند المؤمنين ومحاولة التراجع لكون تلك الممارسات غير مألوفة للآخرين أو مورداً لاستغرابهم"[٣].

أولهما: أن تهيب نقد الآخرين والاهتمام بإرضائهم تجعل الإنسان ـ من حيث يشعر أو لا يشعر ـ يضخم التهريج والتشنيع، ويهولهم، ويحيطهما بهالة من الأوهام والمبالغات.

[٢] - فاجعة الطف: ابعادها، ثمراتها، توقيتها السيد محمد سعيد الحكيم، ج: ١ ص: ٥٧٤
[٣] - فاجعة الطف السيد محمد سعيد الحكيم، ج: ١ ص: ٥٢٣

ويتخيل كثيراً من ردود الفعل السيئة والسلبيات المترتبة عليه، من دون أن يكون لشيء من ذلك وجود على أرض الواقع، بل هي ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٤].

مضافاً إلى أمرين، يهتم بهذا الأمر اهتماماً بالغاً، يضيف أمرين يقول: "أولهما أن تهيب نقد الآخرين والاهتمام بإرضائهم تجعل الإنسان من حيث يشعر أو لا يشعر يضخم التهريج والتشنيع فيمر بلقطة فيها تشنيعة، هو يبدي يوزعها ويقول: الشعائر في خطر والتشيع هو يشارك بماذا؟" ومرّة جاء أحد الأشخاص، وجلس أمام السيّد، وكان من الشخصيّات البارزة، ولا أرغب في ذكر الأسماء، فربما لا يليق ذلك بمقامه. تحدّث عن مسألة التشنيع فقال:

"لقد تحدّثتم كثيراً عن التشنيع، ولكن الجماعة لم يتوقّفوا عنه، والآن لم يعد أمامكم خيار سوى أن تبيّنوا للعالَم سبب قيامهم بهذه الأفعال التي يُشنَّع بها. لا يوجد حلّ آخر. أنتم لا تُشاركون في التشنيع، بل تساعدون الناس على فهم حقيقة الأمر. فعندما يكون هناك أمر مستغرَب جدّاً، لابدّ أن نُفسّره للناس لتتّضح الصورة. بيّنوا لهم ما الذي جرى، ولماذا تصدر من هؤلاء ردّات الفعل بهذه الطريقة المميّزة والاستثنائيّة، فبذلك تُعالِجون المشكلة. فإذا كان الهدف هو حفظ ماء وجه التشيّع والدفاع عنه، فهذه هي الطريقة الوحيدة، إذ لا يوجد حلّ آخر."

ثانيهما: "أن التهريج حيث كان المقصود منه تراجع الشيعة عن هذه الممارسات فإذا لم يجد أذناً صاغية خفت تدريجياً لشعور أصحابه بالخيبة والفشل واضطروا للتعامل مع هذه الممارسات كما يتعاملون مع سائر الأمور المفروضة على أرض الواقع مما لا يعجبهم." أما إذا وجدوا أذناً صاغية وبدأ الشيعة يتراجعون عن بعض هذه الممارسات،

[٤] - النور - الآية ٣٩

فإن القائمين بالتهريج والتشنيع يشعرون بنجاح مشروعهم فيزيدون فيهما من أجل تراجع الشيعة عما تبقى من هذه الممارسات. وكان لسان حاله: "لن ترضى عنك".

أيضـــاً من النقاط المهمة الفكرية في هذا الشـــأن يقول: "الوظيفة عند اختلاف وجهات النظر." لاحظوا الفقيه الحكيم المفكر من خصـــائصـــه أنه بقدر ما يكون عميق الفكرة يكون واســـع الرؤية ورحب الأفق، وهكذا كان الســـيد قدس سره ولا ســـيما في هذا الشـأن حيث وجدتم أنه كيف يتكلم ويدافع بشـكل مسـتميت عن الشـعائر ولا يقبل بأي اهتمام بالتشـــنيعات أو الكلمات التي تردد التشـــنيع والتهريج. لكن هو في نفس الوقت يلاحظ المرونة العالية التي عنده في هذا الشـــأن. ولهذا من يريد أن يتأسى بالصـــالحين من فقهاء أهل البيت ويقتبس من علومهم ينبغي أن يأخذ الموضـــوع كله بنظر الاعتبار، لا ان الإنسان يأخذ شيئاً ثم يغفل عن جوانبها الأخرى.

فيقول: "قد تختلف وجهات النظر حول بعض الممارسات، إما للاختلاف في الحكم الشرعي اجتهاداً أو تقليداً، أو للاختلاف في حصول ما يؤكد رجحانها ويقتضي التشبث بها، أو يوجب مرجوحيتها ويقتضي الإعراض عنها من العناوين الثانوية التي قد يراها البعض." "واللازم حينئذ على كل طرف من أطراف الخلاف الاقتصـــار على بيان وجهة نظره أو محاولة الإقناع به بالتي هي أحسـن كما حث الشـارع على ذلك في سـائر موارد الخلاف، ولا ينبغي تجاوز ذلك إلى إرغام الغير على تقبل وجهة نظره أو الصـراع الحاد والتشـــنجات أو التهريج المضاد والتشنيع والتوهين إلى غير ذلك مما يؤدي إلى انشقاق الطائفة على نفسها وتمزيق وحدتها ووهنها أمام الآخرين وشماتة الأعداء بها، بل قد يؤدي إلى الإحراج في اتخاذ المواقف والتعامل مع الآخرين كما يؤدي إلى هدر كثير من الطاقات المادية والمعنوية من أجل انتصـــار كل طرف لوجهة نظره بدلاً من صرف تلك الطاقات لصـــالح هذه الطائفة المتعبة وخدمة مشـــتركاتها وتخفيف محنتها. وما دامت هذه الطائفة في وضـــعها الحالي تفتقد الرعاية الظاهرة من الإمام المعصـــوم صـــلوات الله عليه ولا يتيسر لها تحكيمه في

خلافاتها، فلا يحق لشـــخص فرض وجهة نظره على غيره أو التعدي عليه مادياً أو معنوياً لعدم قناعته برأيه وانصياعه له"[٥].

"رؤية جامعة لشـمل الطائفة حافظة لقناعات كل شـخص وعمله بالحجة الشرعية عليه ومحترمة لحرمات الآخرين من المؤمنين وحافظة لمصـــالح العامة المشـــتركة للمؤمنين." وهذه مرة تصدر من شخص هو ضعيف القناعة ببعض الأشياء طبيعي الإنسان يصير عنده مرونة هنا، أما هو في أوج قوة بصيرته وتمسكه واهتمامه بترسيخ قناعاته، هو عنده قناعة راسخة جداً لكن هو من هذا المنطلق هو أيضاً عنده درجة عالية من ماذا؟ من المرونة.

فلا هي مرونة الضعفاء ولا تشدد وتصلب هو تصلب المتعصبين، وإنما هي البصيرة وهي مراقبة الله في مراعاة الحرمات والمحافظة على المصالح العامة.

بعد أشير إلى نقطتين أخيرتين. أبعاد الشعائر عن أن تكون مسرحاً لإبراز العضلات، وهذه ألفاظه، والتسابق والتشاحن من أجل إظهار المميزات والقدرات الشخصية أو نحوها الفئوية. والمقصود أصبح واضحاً، أي أنّ الأمر ليس على نحو أن نقول: هذا عزاؤنا، وهذا موكبنا، وهذا مجلسنا. فمجلس الحسين عليه السلام هو مجلس واحد يجتمع فيه جميع الخَدَم، ونحن خدّام فيه كما نحن خدّام في ســائر المجالس، وكذلك الموكب، فهو موكب الحســين ونحن خدّام فيه وفي جميع المواكب. وهذه الروح التي يســودها التنافس يُعَدّها من مكامن الخطر، لأنّها تُضعِف الشعائر، وتنـــزع عنها روحها الأصيلة، فتنفصل عنها حقيقتها المعنويّة التي تُبقيها حيّة وفاعلة.

وأيضاً من جملة الأمور المرتبطة بذلك ما ذكره في بعض بياناته من تجنيب الشعائر للأمور السياسية لا سيما الأمور الخلافية في هذا الشأن. أي لا ينبغي أن تُستَغلّ الأمور باتجاهات خاصّة، وكأنّ الشعائر قد تحوّلت إلى منبر لأغراض أخرى، بينما الشعائر تمثّل

[٥] -فاجعة الطف السيد محمد سعيد الحكيم، الجزء: ١ صفحة: ٥٢٥.

قمّة الاهتمام في إحياء الأمر الديني. ومن كان له قناعة في قضـــيةٍ ما، فنحن نحترم قناعته، ولا بأس أن يتحدّث عنها، ولكن لا يصحّ أن يتّخذ من الشعائر منبراً لطرحها. وهذه النقطة بالذات كان قد جرى حولها حديث متكرّر في خدمة السيّد حول هذا الشأن.

أما النقطة الأخيرة فهي تركيزه البالغ على جانب الشـــجن والحزن في الشـــعائر، وقد أولى هذا الجانب عنايةً خاصة في سنواته الأخيرة. فقد تحدّث، على سبيل المثال، مع أخينا العلّامة السـيّد عزّ الدين بن السـيّد حديثاً مفصّـلاً، وطلب منه أن يتناول هذا الموضـوع في جولاته التبليغيّة. كما اســـتدعاني يوماً وقال لي: أنت تخرج وتذهب إلى كذا، فاهتمّ بهذا الموضوع. فكتبت شيئاً حوله وجئت به إليه، فقرأه وقال: فيه إضافات، لكنه ليس تماماً ما أريده. أردتُ من هذا أن أُبيّن مدى شدّة اهتمامه بهذا الموضوع وحرصه عليه.

كان السـيّد يرى أنّ الشـعائر الحسـينيّة، بل والخطاب الحسـينيّ نفسـه ـــ إن صحّ التعبير ـــ أي خطاب الحسـين عليه السـلام الصـادر من المعصـومين عليهم السـلام، إنّما السمة الأولى له هي الحزن على الحسين وإثارة الشجن في المصاب به. وكان يقول: انظر إلى الإمام الرضا عليه السلام كيف يتحدّث عن الحسين، وانظر إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله).

فالحسين عليه السلام يمثّل قيماً عظيمة تجسّدت في ملحمته الكبرى، وهذه القيم لا يُنكرها أحد، وقد تناولها الشـــعراء في أشـــعارهم، وفاخر بها الســـيّد حيدر الحلي وغيره، وتحدّث عنها غيرهم من الشـــعراء بأبلغ القول. غير أنّ الأولويّة التي تحدّث بها أئمّة أهل البيت عليهم الســـلام، وركّزوا عليها، منذ عهد النبي (صـــلى الله عليه وآله)، كانت منصـــبّة على جانب الحزن والمأساة.

وقد أشكلتُ عليه في ذلك يوماً ـ وكما تعلمون، في مقام التعلّم يطرح الإنسان الأسئلة ويتباحث ليفهم ويتعلّم ـــ فقلت له: ربّما كان الأئمّة عليهم السلام يعيشون ظرف التقية، ولذلك لم يُظهروا تلك القيم الأخرى، كقيم البطولة العظيمة في كربلاء.

فأجاب قائلاً ما معناه: ليس الأمر كذلك، بل ينبغي أن تبقى السمة الأساس، التي تعبّر عن شعار هذه القضية، هي حالة الحزن والبكاء والأسى على الحسين عليه السلام.

ولعلّ هذا ما بقي في ذهني من كلامه، وإن لم أنقله نقلاً حرفيّاً، لكنّه قال: إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن في ظرف تقية، وكان يمكنه أن يُعبّر عن البطولة والتضحية والفداء وغيرها من القضايا الحقيقية الصحيحة، ومع ذلك كان حديثه عن الحسين مملوءاً بالحزن والأسى. وحتى في زمن العباسيين كان الوضع مختلفاً عن زمن الأمويين، ولكن تبقى السمة العامة واحدة.

فالسيّد كان يرى أنّ الموضوع الحسيني، لمن أراد أن يعرف أولويّاته من مصادره الأصيلة المعصومة، يجب أن يُنظر إليه من هذا المنظار، أي أنّ الطابع الرئيس للقضية الحسينية هو الحزن والشجن والأسى، وهو عنوانها البارز، ورسالتها الأساسية والرئيسية.

المحور الثالث: سيرته قدس سره

في المجالس والمواكب

عندما نشئنا في مجالس الحسين، كنا نرى السيد إذا بدأ القارئ يقرأ -رحم الله الشيخ شاكر، الشيخ صالح، السيد عبد الرزاق القاموسي، غيرهم، السيد كاظم القاضي، إلى آخره من الخطباء لبعضهم علماء وخطباء- عندما يقرأون الشعر الحسيني القريض بأشعار الحليين وأمثالهم أو السادة الهنديين وأمثالهم، السيد كان صوته نشيجه على الحسين كان

أصلاً يطغى يبرز بشكل واضح. لكن عندما ضعفت قواه كان صوته ما يسمع بسهولة. لكن بالفترة الأولى كان بكاؤه ونشيجه نشيجاً عالياً للحسين عليه السلام.

في المواكب، أتذكّر موكب النجف في ليلة العاشر من المحرّم في كربلاء. هذا الموكب كان يخرج على شكل مجموعات كبيرة نُعبّر عنها بـ«الجوقات». وكانت الجوقة الأولى عادةً تضمّ أهل العلم ويشارك فيها العلماء.

ولا يزال في ذاكرتي أن السيّد قدّس سرّه كان يحضر هذا الموكب. دعوني أصفه لكم أكثر: كان الموكب ينطلق من الحسينية النجفية، ثم يتوجّه إلى حرم الإمام الحسين عليه السلام، وبعدها إلى حرم أبي الفضل العباس صلوات الله عليهما. وفي طريقهم كانوا يسيرون على هيئةٍ موكبية، يقرأون ويلطمون حتى يصلوا إلى الحسين عليه السلام.

وعند وصولهم إلى حرم الحسين، كان الرادود يتلو القصائد، وفي آخر فقرات قراءته ترتفع النبرة شجناً وحماساً وحزناً بالغاً. وفي الختام يستبدّ الجزع بالمعزّين، فتكون آخر شعاراتهم وكلماتهم، وهم يلطِمون رؤوسهم وصدورهم وبعضهم وجوههم: «وا حُسين! وا حُسين!» ثم يدخلون إلى حرم الحسين عليه السلام.

كنتُ أرافق السيّد الوالد وأنا صبيّ آنذاك، ولا أنسى مشهد السيّد الحكيم رحمه الله عندما دخل في هذه المرحلة الأخيرة، وهو يلطم على صدره مكشوف الصدر كالمعزّين، وقد انهمر حزنه حتى بدت شيبته المباركة متأثّرةً ومنفعلةً معه. ولا يزال منظره ماثلاً أمامي كلّما تذكّرته، فقد كان في حالٍ من الحزن والجزع كأنّه لا يُبصر ما حوله إلّا فاجعة الحسين، وقبر الحسين، ومصاب الحسين عليه السلام.

كان السيّد أيضاً شديد الاهتمام بالمقتل الحسيني، وقد قرأ مقتل الإمام الحسين عليه السلام في أحد مجالس النجف، وهو مجلس السيّد الأستاذ الخال، الفقيد الكبير المرحوم السيّد محمّد حسين الحكيم، وذلك في أوائل السبعينات.

قرأ السـيّد ليلة العاشر مصـيبة الحسـين على طريقة المقتل، ولا زلتُ أذكر إلى اليوم أنّه عندما بلغ مقطع المقتل وبدأ بقراءة المصاب الأعظم، ثم انتقل إلى ذكر مصيبة سلب الحسين عليه السلام، كان المشهد مفجعاً للغاية.

أتذكّر أنّ السيّد الوالد قدّس سرّه هاله الأمر جداً، حتى إنّه لم يُطق متابعة المجلس، فبعده جاء إلى السيّد – وهو يكنّ له الاحترام العظيم بمقام أستاذه – معاتباً إيّاه قائلاً: كيف طاوعتك نفسك أن تذكر مصائب الحسين بهذه التفاصيل؟

وكان السـيّد يجيبه جوابَ من يُراعي المشـاعر الحسـينيّة قائلاً: إنّه اضـطرّ إلى قراءة ذلك الأمر، لما يقتضيه المقام والموقف الحسيني من إظهار الفاجعة على حقيقتها.

في السجن والإصرار على الشعائر

تغيّرت الظروف، وذهبنا إلى ســجون صـــدام. وقبل ذلك كانت هناك محاولات لتشويه المنبر الحسيني، وضغوط تُمارس على الخطباء ليذكروا صدام أو يمتدحوه، وما إلى ذلك من أمور. لكنّ السيّد كانت له مواقف حازمة تجاه هذه القضية وغيرها.

وحين دخلنا السـجن، قال لنا السـيّد: «انظروا، هذه هي شـعائر الحسـين. الآن لا يوجد مجلس، ولا مراســم، ولا عرف، ولا أيّ شيء من المظاهر الخارجية. فإذا كنّا نؤمن حقّاً بهذه الشعائر، فالآن هو وقتها. وإن كنّا صادقين في ولائنا، فعلينا أن نقيم منها ما يتيسّر لنا، في الحدّ الممكن».

لكن ماذا عندنا؟ لا خطيب، ولا رادود، ولا كتاب، ولا تســجيل، ولا أيّ وســيلة من الوســائل التي تُعين على ذكر الحســين عليه الســلام. حتى الســواد لم يكن موجوداً. فكان الســواد عبارة عن بقايا عمامة؛ إذ إنّهم تجرّؤوا على عمائمنا ومزّقوا بعضــها – لعنهم الله – غير أنّ بعض البقايا بقيت.

وبصعوبةٍ، ومن خلال استعمال الصابون وما فيه من مادةٍ لاصقة، أُلصقت تلك البقايا على الجدار بطريقةٍ لا يراها أزلام النظام حين يفتّشون. ثم كتب عليها سيّدنا – الذي درستُ عنده اللمعة، السيّد أبو مقداد حفظه الله – بخطّ يده: «يا حسين».

وحين رُسمت هذه الكلمة «يا حسين»، رأيناها بعد فراقٍ طويلٍ للسواد على الحسين، فكانت هي وحدها مشهداً بكائياً مؤثّراً.

ولا خطيب عندنا، فماذا نفعل؟ كان يقول لنا السيّد قدّس سرّه: «تعالوا، اجلسوا، احفظوا ما تقدرون على حفظه من النصوص ومن الشعر الحسيني، لتقرأوا لنا وتُذكّرونا بالقضيّة الحسينيّة».

فكان يُعلّمنا، وبعد دقائق نقوم بقراءة ما حفظناه، نستعيد به ذِكر الحسين ومصاب الحسين عليه السلام، ونحن خلف القضبان.

فكانت القراءة قراءةً تذكيرية، لا شيء جديد فيها، فهي «بضاعتهم منهم»، كما يُقال. وعندما يبدأ أحدنا بتلاوة شيءٍ من القضيّة الحسينيّة، كنتُ أرى – ولا زلتُ أتذكّر – أنّه ما إن نقرأ شيئاً ممّا نحفظه عنهم من واقعة الحسين عليه السلام، حتى يعلو البكاء في السجن.

كان أولئك السادة المظلومون في سجون صدام، الممنوعون من إقامة أدنى شعائرهم ومراسمهم، والذين لا يعلمون شيئاً عن أهاليهم، كما أنّ أهاليهم لا يعلمون عنهم شيئاً، وبعضهم قد قُتل صبراً إعداماً، وبعضهم مات مريضاً في نفس المكان، أو نُقل من ساعاته الأخيرة وتوفّي بتلك الحال، هؤلاء كانت دموعهم تصرخ مع كلّ ذكرٍ للحسين عليه السلام.

وكثيراً ما كنتُ، من شدّة البكاء، لا أسمع صوتي جيّداً، فضلاً عن أن يسمعوه هم بوضوح. كانت مجرّد إشارةٍ تذكيرية كافية، يقرأ الإنسان صدر بيت الشعر، فيعرفون عجزه، وينفجرون بالبكاء على الحسين عليه السلام.

وكان السـيّد قدّس سرّه يؤكّد قائلاً: «إذا بكينا هنا، وأقمنا المراسـم هنا، فذلك دليل على أنّنا حقّاً نؤمن بهذه الشعائر ونلتزمها».

كتابة المقتل في السجن

ثم جاءت فرصـةٌ للكتابة، وكانت فرصـةً غريبةً حقّاً يصـعب تصـديقها إلا بذكر تفاصيلها. فلم يكن هناك قلم، وقد تحدّثتُ عن ذلك من قبل، كما تحدّث سماحة السيّد[٦] أيضاً – جزاه الله خيراً – في إحدى المرّات.

بصعوبةٍ بالغة، حصلنا على بقايا قلم، نكتب به على بقايا أوراق السجائر التي كانت تُلقى هنا وهناك. ومع ذلك بدأ السيّد بالكتابة. قبل أن يشرع في كتابة مباحث الأصول التي أصابه فيها ما أصابه، كتب نصوصاً شريفة تتعلّق – فيما أذكر – بحديث الغدير، أو بالإمام الصادق عليه السلام.

ثم جاء موسم الحسين، فبدأ السيّد يكتب عن بعض تفاصيل النهضة الحسينيّة، من خروج الحسـين عليه السـلام إلى يوم العاشر، إلى يوم المقتل. ولا زلتُ أتذكّر أنّنا كنّا في مكانٍ واحد، غرفةٍ أو أشبه بزنزانة، وكان السيّد يكتب، وفجأة نسمع نشيجه وهو يكتب، إذ يتذكّر مصاب الحسين عليه السلام فيبكي.

وكنتُ عندما أقرأ تلك الأوراق التي يكتبها السـيّد، أرى عليها آثار دموعه، وقد خالطت كلمات المقتل الحسيني التي سطّرها بيده.

وفي اليوم العاشر، جلس السـيّد وقرأ لنا المقتل، المقتل الذي كتبه هو بيده. وكيف جمعه؟ كان يسـتعين ببقايا الذاكرة، فيتذاكر مع السـادة الأجلاء – حفظهم الله جميعاً –

[٦] - لعله السيد عز الدين الحكيم نجل فقيه أهل البيت حيث انه كان حاضرا في المحاضرة.

كأخيه السيّد محمّد تقي الحكيم، والسيّد محمّد جعفر الحكيم، وغيرهم من السادة الكرام، فكان كلّ واحدٍ منهم يذكّر الآخر بشيءٍ من الخطبة أو من الرجز الذي كان يُقال، حتى اكتمل ذلك النصّ المبارك الذي دوّنه السيّد، فكان مقتل الحسين عليه السلام الذي وُلد في ظلمات السجن.

بقي السيّد يقرأ ذلك المقتل، وكان يوماً مشهوداً في ذكر مصيبة الحسين عليه السلام. غير أنّ الخشية كانت شديدة من أن تُسمع أصوات البكاء، فيقتحم علينا السجّانون، فيحدث ما لا تُحمد عقباه، مما لا يرضاه الله تعالى من تعريض النفس للخطر.

ولذلك كان بعض الإخوة من السجناء يقفون يراقبون الممرّ، فإذا لاحظوا أيّ حركة لأزلام النظام، أسرعوا إلى الداخل لينبّهونا.

وفي إحدى المرّات علا صوتنا بالبكاء، فكان الاتفاق أنّه متى ما ارتفعت الأصوات واقتربت من باب السجن، يُبلغوننا لنكتم أصواتنا ونكبت نشيجنا الحسيني.

لكنّهم حين جاؤوا في تلك المرّة، ووجدوا المشهد، وسمعوا نشيج البكاء وصوت الناعي وهو يتلو المقتل، رقّت قلوبهم ووقفوا معنا يبكون، ولم يُخبرونا كما كان متّفقاً، فمرّت تلك اللحظة بسلام.

وهكذا مضت الأمور على ما هي عليه، حتى سقط النظام، وبقيت تلك الذكرى خالدةً في الذاكرة، شاهدةً على صدق الولاء للحسين عليه السلام، حتى في أقبية الظلم والسجون.

في الزيارة المشاية

كانت من أهم الأمور التي اهتمّ بها السيّد قدّس سرّه قضيّة الزيارة الحسينيّة.

وفي هذا الشأن أذكر إشارتين سريعتين:

الإشارة الأولى:

أنّه كان بنفسه شديد الحرص على زيارة الحسين عليه السلام ما أمكنه ذلك. وقد حدّثنا مرّةً أنّ البلاء كان شديداً جداً في أحد أيّام العاشر، وكانت الطرق مقطوعة والحواجز منتشرة، ومع ذلك أقنع الشيخ صادق القاموسي – ذلك الرجل المقدّس الذي اتّخذه السيّد أخاً بالمعنى الحقيقي – وذهبا معاً لزيارة الحسين عليه السلام بصعوبةٍ بالغة، حتى وصلا.

وكان السيّد يرويها قصّةً طويلةً بتفاصيلها التي لا أحفظها جميعاً، غير أنّه كان يقول: «كنت أذهب إلى الزيارة ولا أحبّ أن أتميّز فيها عن غيري، رغم أنّي كنت أستطيع بسهولة أن أُنسّق فأدخل بسرعة إلى الحرم، لكنّي كنت أقول: أنا أزور إلى أن ينقطع الطريق، فإذا وصلت إلى نقطة السيطرة، حيث يُمنع المرور، أنزل وأزور هناك، وأصلّي إن استطعت، من غير أن يُعرف مَن أكون، وربما في جوّ الليل، أزور وأرجع».

وكان هذا دأبه؛ أوّل الخارجين إلى مقدارٍ من الزيارة، لا يتركها أبداً ما دام فيها سعةٌ ولو يسيرة.

الإشارة الثانية:

أنّه نُقل عنه أنّ بعض ذويه من السيّدات العلويّات الجليلات قالت له يوماً: «إنّي لا أُطيق المشي إلى الحسين عليه السلام، فهل لي أن أركب السيارة إلى قريب كربلاء ثم أمشي ما أستطيع في المرحلة الأخيرة؟»

فقال لها السيّد: «امشي ما وسِعك، فإذا عجزتِ فاركبي واذهبي، المهم أن تزوري».

ثم قال وهو يستحضر الموقف بوجهٍ مشرقٍ وبابتسامةٍ تملؤها الرعاية والفرح: «مشت، مشت، والآن وصلت تالية، وصلت إلى الحسين عليه السلام».

تأمّلوا كيف كان يتفاعل مع موضوع الزيارة، وكيف كانت تعيش في وجدانه عمق الولاء، حتى إنّ ذكر بلوغ الزائرة إلى الحسين عليه السلام كان يملأ قلبه سروراً ووجهه نوراً.

المهم أنّنا كنّا نخرج قبل التوجّه إلى التبليغ الحسيني، وكان السيّد قدّس سرّه يشجّعنا كثيراً على الذهاب إلى الناس المؤمنين، ويقول دائماً: «أنا أحبّ أن أذهب إليهم».

وقد رُوي أنّه سمع يوماً الطاغية يتحدّث بازدراءٍ عن زيارة الحسين عليه السلام، إذ قال: «لو كانت الزيارة ذات أساسٍ شرعي، لَمَشَى فيها السيّد محسن الحكيم، فلماذا لم يخرج ماشياً؟»

فقال السيّد: «منذ سمعتُ ذلك، عزمتُ على أنّي متى ما سنحت لي الفرصة، سأمشي في الزيارة».

ومنذ ذلك الحين كان يمشي في كلّ سنة ما استطاع، ويسعى بقدْر وسْعه لإحياء زيارة الحسين عليه السلام. ولا زال الجميع يذكره في هذا الشأن المبارك.

قضية الجزع الأعظم

ومن المواقف التي لا أنساها، أنّي جلستُ يوماً بخدمته بعد إحدى الزيارات، وقلت له: «سيّدنا، نحن عندما نذهب، لسنا محترفين في الخدمة الحسينية، لكنّنا نفعل ما يخطر في بالنا من تفاعلٍ ونيّةٍ خالصة».

ثم قلت له: «لاحظتُ أنّ الحسين عليه السلام في أشدّ المواقف وأعظم المصائب كان يتجلّد ويقول: هون ما نزل بي، إنّه بعين الله. فقد ورد ذلك عند مصاب عبد الله الرضيع، حين رمى الدم إلى السماء وقالها، فكان يتمالك نفسه ويتصبّر». «وعند شهادة عليّ الأكبر عليه السلام أيضاً، ورد في بعض الروايات أنّه قال: هون ما نزل بي، إنّه بعين الله.»

ثم قلت له: «سيّدنا، عندما أصابه السهم المثلّث، وأخرجه من قفاه، وكانت مصيبةً عظيمةً هدّت قواه، وانبعث الدم كالميزاب، أخذ من دمه الشريف فلطّخ به وجهه وشيبته، وقال: هكذا ألقى الله وأنا مخضّبٌ بدمي.»

كنتُ أرى السيّد عند سماع ذلك يتأثّر تأثّراً بالغاً، وكأنّ المشهد يمرّ أمام عينيه، فيتجلّى الحسين عليه السلام في قلبه وعينه بكلّ ما في الفاجعة من ألمٍ وصبرٍ وتسليمٍ لله تعالى.

قلت له: «سيدنا، الحسين هنا في مقتل المقرم، يقول: هون ما نزل به أنه بعين الله، أنا لاحظت في كل المقتل مرة واحدة فقط وجدت الحسين عليه السلام جازعاً، وذلك عندما سقط أخوه أبو الفضل العباس، فصاح: الآن انكسر ظهري، وقلت حيلتي، وشمت بي عدوي.»

فهاجت بالسيد. قدس سره. وجده عندما حدثته بهذا الأمر.

قلت له: «سيدنا، أريد أن أتأكد مما أقول، هل عندي اشتباه؟ أريد أن أصوب كلامي.»

فقال لي السيد، وقد غلبه الوجد: «مصيبة الحسين فيها من الأمور العظيمة ما لا يمكن إدراكها. وأنا مرة التفتُّ إلى أمرٍ، واعذروني أن أذكره، لكن أرجو أن يكون له ثواب. التفتُّ إلى أن الحسين عليه السلام لم يُقتل كما قُتل سائر أصحابه وأولاده، أولئك قُتلوا في المعركة، أما الحسين فقد أُلقِي على وجهه وذُبح صبراً.»

ثم قال: «عندما أدركت هذا الأمر عَظُمَ عليَّ، وبقيتُ أياماً عدّة في حالٍ خشيتُ على نفسي منها، لا يقرّ لي قرار، ولم أهنأ بطعامٍ ولا شراب، إذ أدركت أن الحسين عليه السلام ابتلاه الله بهذا البلاء العظيم. لكننا ــ إلى يومنا هذا ــ لا نعرف مقدار مصاب الحسين عليه السلام حقّ المعرفة.»

اللهم ثبّت لنا عندك قدم صدق مع الحسين وأصحاب الحسين الذين بذلوا مهجهم في سبيله عليه السلام. اللهم ارحم سيدنا وأستاذنا ومعلمنا بواسع رحمتك، اللهم احشُره مع الحسين، واجمعه بالحسين عليه السلام، واجمعنا معه إن شاء الله، مع الحسين عليه السلام، في مقعد صدق عند مليك مقتدر. أستغفر الله لي ولكم، وأعتذر عن القصور والتقصير، وأسألكم الدعاء، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين.

الفاتحة إلى روح السيد، وإلى أرواح خدام الحسين جميعاً، وإلى المؤمنين والمؤمنات، لا سيما أسلافكم الصالحين.